الاتجاه النقدي عند أبي العبّاس أحمد المقرّي التّلمسانيّ

أ.عبد القادر بن عزة

جامعة مستغانم

مقدمة:

يربط بعض الباحثين تطور حلقات الأدب والنقد الأدبي في المغرب الإسلامي بمراحل تطور الأدب والنقد في المشرق العربي بحيث أبعدوا عنه الاستقلالية.

ومع ذلك فقد مثّل خلية حيوية في كيانه، في ظل كل التأثيرات التي أصابته، لذلك ركز الباحثون على إبراز دور هذه المؤثرات والتغيرات التي ساهمت في بناء الذوق الأدبي واتجاهاته للغرب الإسلامي.

ومع تباين قوّة هذه العوامل، إلا أنّها تلتقي جميعا في صياغة الذوق الأدبي وصقله في تيار عكف على القديم، ولم ينفر من الحديث طيلة الحكم الإسلامي بالأندلس.

أمّا الملاحظة الدقيقة فهي الإشارة إلى أن هذه الآراء النقدية التي انبجست في المغرب الإسلامي، بقيت علامات على المعرفة، لكنّها لم ترق إلى صوغ مسيرة النقد في قالبها، كما كان الشأن في نظيره المشرقي عند بعض النقاد مثل قدامه بن جعفر والجرجاني، بل ظل يسير في الاتجاه العربي الخالص لثبات الثقافة العربية وتأصيل جذورها، لتتمسك العنصر العربي بطابعه[1]، حتى أخذ حازم بن محمّد القرطاجني (ت.672هـ) على عاتقه المساهمة في بلورة مفهوم النقد المختلط بالفلسفة الوافدة (نظرية المحاكاة لأرسطو) [2].

أما العصور المتأخرة، وانطلاقا من سقوط الأندلس حتى بداية حكم الأتراك، فقد نعتها بعض الباحثين الجهوية القطرية لانحصارها في أماكن محددة كفاس وتلمسان وبجاية وتونس[3]. ممّا أفقدها عنصر التأثير وهو عنصر أساس لتثقيف الشعوب.

1- المقرّيّ صورة عصره للنقد والعصر:

لم يخرج مفهوم الأدب في عصر أبي العبّاس أحمد المقّري عمّا كان سائدا طيلة فترة الحكم الإسلامي في المغرب والأندلس، "فهو إجادة في فنيّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب"[4].

غير أن المقّري أعطى لهذا المفهوم بعدا آخر، توافق عمّا كان سائدا في بيئته، "فأعلى مراتب الشعر وأنبلها هو ما أنشد في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام"[5].

ويظهر أنّه أعطى المديح النّبوي، روحه وقلبه، فصوّر فيها حبّه السرمدي لصاحب الغمامة يقول:

ليس كلّ القريض يقبله السمع ... وتصغي لذكره الأفهام
إنّ بعض القريض ما كان هزاءَ ... ليس شيئا وبعضه أحكام
وأجلّ الكلام ما كان في مدح ... شفيع الورى عليه السلام
طيب العرف الدائم الذكر لا ... تأتي الليالي عليه والأيّام
مثل زهر قد شق عنه كمام ... أو كمسك قد فضّ عنه ختام[6]

ومن الفكر النقدية التي شكلت اتجاهه النقدي خاصة في كتابه "نفح الطيب" والذي ضمنه ما يقارب (3000بيتا) أكثريتها لغيره، ثم تذييلها، أو تخميسها أو تسديسها بأبيات من نظمه، ليبرز بذلك تفننه الأدبي ومقدرته الشعرية، "فقد كان لا يستصعب أية قافية كما لا يعجزه أي وزن من أوزان الشعر"[7].

وقد أدى به ذلك إلى إفراغ شاحنة حافظته المملوءة بشتى التعابير المختلفة المشارب العلمية والأدبية، فمال أكثر إلى النقل للأخبار المتنقلة وإيراد الروايات المختلفة، لذلك اعتبره النقاد المتأخرون "مصنفا أكثر منه مؤلفا، ومقلدا أكثر منه مفكرا"[8].

إلا أنّه في كلّ ذلك، فقد كان صاحب أمانة علمية فيما ينقل، بل ذهب به الأمر إلى التحري الشديد والتدقيق الأكيد فيما ينقله من أخبار وروايات. كما أكّده محمد بن عبد الكريم في دراسته لكتاب نفح الطيب، حيث قابل بين عدّة نصوص أوردها المقّري في كتابه فتوصل إلى "أنّها متفقة في المعنى تماما، وفي اللفظ تقريبا.." [9].

ومن وراء هذا النقل فكثيرا ما كان يعلّق على الخبر والرواية فهذا صاحب "نشق الأزهار" يقول عن جامع قرطبة أنّه علّق فيه تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح، وفيه أشياء غريبة من صنائع عجيبة... فيعلّق المقّري على هذا الخبر بقوله "قلت: لم أر أحدا من محققي المؤرخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا، على قلّة اطلاعي، وهو عندي بعيد، لأنّه لو كان لذكره الأئمة.." (10).

كما كان يتوخى كثيرا فائدة الإخبار والاطلاع على مضمون ما أنتجته البيئة الأندلسية في ساحة الشعر وميدان البلاغة، مع إظهاره لموقفه ممّا قيل: فعندما ينقل أبيات شعرية نسبت إلى محي الدين بن عربي يذيلها بقوله: "لست على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ -رحمه الله- فإنّ نفسه أعلى من هذا النظم، لكي ذكرته للفائدة، ولأن بعض النّاس نسبه إليه، فالله تعالى أعلم بحقيقة ذلك"(11).

وهذا النقل لم يكن المقّري أن يتحاشى فيه، ما اصطلح على تسميته بالأدب المكشوف، بل راح يورد العديد من الأبيات التي صبّت في هذا الاتجاه، كالتي أنشدها عليّ بن سعيد صاحب كتاب "المغرب في حلى المغرب" حينما تغزل بغلام أعجمي وسيم.

ونعتقد أنّ أبا العبّاس المقرّي، بنقله لمثل هذه النماذج من الأدب المكشوف، يرسم لنا ملامح بيئة الأندلس الأدبية والاجتماعية معا.

وقد اعتذر مرات عديدة، لنقله لمقطوعات شعرية وأخبار، اعتقد أنّها لا تساير الذوق الاجتماعي والأخلاقي السليم حيث يقول: "وما القصد منه إلا ترويح القلوب اللّذين يسوقون عيسي الأسمار ويزجون..." (12).

ويرجع ذلك محمد بن عبد الكريم في تعليقه على الموضوع إلى تواضع المقّري واعتقاده الخير في العلماء والأدباء، وحمله إياهم على المحامل الحسنة والنبات الطيبة، فمدلول الأدب في نظره، لا يعدو أن يكون صورة صادقة، للحياة الاجتماعية، ومظهر شاملا للتطورات الطبيعية والتصرفات البشرية، لا فرق عنده بين الحسن والقبيح، من حيث التعبير الصحيح واللفظ الصريح، فلا العاطفة الدينية تعترض الشعور الأمين، ولا التزمت بكبح لسان الحق المبين وإنّما لكل مقام مقال "فالدين عند المقّري اعتقاد ثم عمل، أمّا الأدب فقول صادق

وشعور حيّ، وتعبير فنّي لمقتضى الحياة، إذ لولا الصراحة الأدباء ما كنّا نعرف تطوّر الأمم..." [13].

2- المقّري ونقد التعقيبات:

كما سبق الإشارة إليه، فلم يخل نص شعري أو نثري أورده المقّري في كتبه، خاصة "نفح الطيب" إلاّ وذيله بتعقيب، قد يطول أو يقصر، حتّى أصبحت سمة نقدية تتحرك بين دفات كتبه وقد شكّلت صورة نقدية رسمها من خلال الملامح التالية:

- التكرار في النصوص والمعاني: فالقارئ لكتب المقّري يكتشف بسهولة تجليات هذا الملمح، بحيث يعيد النص بمفرداته أو معانيه ثم يفرد له تعقيبا ملائما، ظنا منه أنّه جالب للفائدة، ومظهر للتأكيد يقول: "حينما يعيد تكرار أبيات للسان الدين بن الخطيب يشكو فيها صروف الدهر "وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين -رحمه الله تعالى-[14].

- ملازمته للاستطراد: وهو ملمح لازم المقّري في جميع مؤلفاته عن قصد منه وروية، وما دافع في ذلك إلا "شجون الحديث وتوارد المناسبات"[15]، والملاحظ أن الاستطراد قد يطول وقد يقصر، لكن التعقيب من بعده لابدّ منه، يقول: "وقد ذكرت في هذا الكتاب (يعني أزهار الرياض) حكايات مختلفة، وفنونا مفيدة يزداد الناظر بها معرفة، حسبما جرت بذلك عادة كثيرة من الأمم في مصنفاتهم..." [16].

- الانتقادات النزيهة والتعاليق الطريفة: وقد أخذ نقد التعقيبات عند المقّري شكل الانتقادات والتعاليق، وماهي إشارة واضحة إلى اهتمام المقرّي بكلّ ما قرأه، وما كتبه، وجميع ما نقله من دائرة التاريخ التي وضع فيها إلى دائرة الأديب والناقد.

من ذلك تقفيه على كلمة "فرح" عندما ترجم الصفدي أبا العباس أحمد بن "فرح" اللخمي الاشبيلي، فعقب المقّري على هذه الترجمة بقوله "وظاهر كلامه (يعني الصفدي) ابن فرَح بفتح الراء، والذي تلقيناه عن شيوخنا أنّه بسكون الراء..." [17].

ويورد تحقيقا آخر حول قصيدة ابن زيدون التي أنشدها في ولاّدة بعدما يئس من لقياها والتي مطلعها:

أضحى الثنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

يعقّب المقّري بقوله: لم يذكرها صاحب "قلائد العقيان" وغيره تامة، إنّما ذكرت مبتورة، ينقصها تسعة أبيات...، ثم أردفها بقوله: "وإنّما ذكرت هذه القصيدة -مع طولها- لبراعتها، ولأن كثيرا من النّاس لا يذكر جملتها، ويظن أنّ في القلائد وغيرها منها هو جميعها وليس كذلك. فهي وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا القليل..." [18].

3- فصل المقال:

إذا كانت مجمل الآراء والأفكار النقدية التي تجلت لنا في مصنفات المقّري خاصة منها "نفح الطيب" و"أزهار الرياض" لا ترقى إلى تشكيل اتجاه نقدي واضح لدى الرجل، إلا أنّه بالإمكان الوقوف على بعض النقاط نراه ضرورية لوضع صورة المقّري النقدية في إطارها الصحيح.

أولا: لا يختلف اثنان على أن كتابات المقّري تدور رحاها أكثر في ساحة التاريخ الأدبي، الذي أصبح المعين الحقيقي للنقد الأدبي القديم.

ثانيا: لا يمكن أن نحمّل تصنيفات المقّري أكثر مما تحتمل، فقد كان حقا شاهدا على عصر المغرب الإسلامي بكل أبعاده التاريخية والأدبية والفكرية والصوفية والفلسفية، ممّا جعله المصنّف الموسوعي، الناقل لأخبار عصره المحقق في الروايات، المساعد للدارسين لتلك الحقبة من التاريخ الأدبي.

ثالثا: لقد عاش المقّري أوضاع أمة اضطربت جوانحها، وحضارة أفل نجمها، فلم يكن بوسعه إلا التأريخ، ورصد للأيام وذكر الأخبار وجمع الأشعار علّها تساعد الأجيال اللاحقة في تحديد معالم المعركة الحضارية التي خاضها الأجداد في المغرب الإسلامي.

رابعا: إنّ تكوين ملامح عامة لأفكار مدرسة نقدية، يتطلب الاستقرار، والوضوح في الصور الأدبية، وهذان الأمران لم يستوفهما عصر المقّري، فقد عاش مرتحلا حتى نعت أدبه -بأدب الرحلات- لما عرّف عنه من كثرة التنقل بين الحواضر العلمية آنذاك.

وأخيرا لابد من الإشارة إلى أنّ أية دراسة لجانب من جوانب الشخصية مثل المقّري، الذي حمل على عاتقه عبء تقديم صورة ناصعة للجانب الأدبي والفكري لمجتمع إسلامي أُغْرِق في الفوضى السياسية، والتدحرج الاجتماعي لابد لها أن توضع في قلب أحداث زمانها، وتتبع لحركاتها وتنقلاتها وأقوالها للخروج بصورة واضحة حقيقية غير مزيفة من جميع الجوانب.

الهوامش:

[1]- تاريخ النقد الأدبي، د.محمد زعلول سلام، ج1، دار المعارف، القاهرة، ص192.

[2]- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، ص355.

[3]- المقّري وكتابه نفح الطيب، د.محمد بن عبد الكريم، مكتبة الحياة، لبنان، ص44.

[4]- المرجع نفسه، ص45.

[5]- نفح الطيب، أحمد المقّري، ج1، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1998، ص64.

[6]- نفس المصدر، ج1، ص65.

[7]- المقّري وكتابه نفح الطيب، د.محمد بن عبد الكريم، ص .

[8]- المرجع نفسه، ص387.

[9]- المرجع نفسه، ص388.

[10]- نفح الطيب، أحمد المقّري، ج1، ص61.

[11]- المصدر نفسه، ج2، ص368.

[12]- نفسه، ج1، ص121.

[13]- المقّري وكتابه نفح الطيب، ج3، ص227.

[14]- أزهار الرياض، أحمد المقّري، ج3، ص227.

[15]- المقّري وكتابه نفح الطيب، د.محمد بن عبد الكريم، ص400.

[16]- أزهار الرياض، أحمد المقّري، ج1 ص21.

[17]- نفح الطيب، أحمد المقّري، ج3 ص284.

[18]- المصدر نفسه، ص407.